رويّ القاف

كبرت حول ديارهم

وقال في صباه يمدح أبا المنتصر شجاع بن محمد بن أوس بن معن بن الرضى الأزدي:

[الكامل]

أَرَقٌ عَـلَـى أَرَقٍ وَمِـثْـلِـيَ يَـأْرَقُ
وَجَـوًى يَـزِيـدُ وَعَـبْـرَةٌ تَـتَـرَقْـرَقُ(١)
جُـهْـدُ الـصَّـبَـابَـةِ أَنْ تَـكُـونَ كَـمَـا أُرَى
عَـيْـنٌ مُـسَـهَّـدَةٌ وَقَـلْـبٌ يَـخْـفِـقُ(٢)
مَـا لَاحَ بَـرْقٌ أَوْ تَـرَنَّـمَ طَـائِـرٌ
إِلَّا ٱنْـثَـنَـيْـتُ وَلِـي فُـؤَادٌ شَـيِّـقُ(٣)
جَـرَّبْـتُ مِـنْ نَـارِ الْـهَـوَى مَـا تَـنْـطَـفِـي
نَـارُ الْـغَـضَـا وَتَـكِـلُّ عَـمَّـا تُـحْـرِقُ(٤)

---

(١) الأرق: السهاد. الجوى: الحرقة. العبرة، بفتح العين: الدمعة. تترقرق: تسيل. يبدأ الشاعر قصيدته بمطلع غزلي؛ إنه يُعاني من قلّة النوم، فالأرق يُثير عينيه، فلا يعرف للنوم سبيلاً، فقد تمكّن منه العشق، وازدادت الحرقة في قلبه، فدموعه تغسل وجهه.

(٢) الصبابة: شدّة الشوق للمحبّ. ما يدلّ على معاناة العاشق أن يرى المرء ما يُعانيه الشاعر من غرام يترجمه سهر وعين دامعة وقلب لا يعرف للراحة سبيلاً، إنه دائم الخفقان.

(٣) تثنيت: عدت. شيّق: مشتاق. ما يثير مشاعر الشاعر برق يلمع في كبد السماء، وغناء طائر يبكي أليفه بصوت شجيّ حزين، ممّا يحمله إلى العودة إلى حالة الحزن، ففي قلبه شوق لمن يحبّ.

(٤) ورد البيت في: أمالي ابن الشجري: ١: ٨٠. الغضا: ضرب من الشجر يدوم طويلاً =

وَعَـذَلْـتُ أَهْـلَ الْـعِـشْـقِ حَـتَّـى ذُقْـتُـهُ
فَـعَـجِـبْـتُ كَـيْـفَ يَـمُـوتُ مَـنْ لَا يَـعْـشَـقُ[١]
وَعَـذَرْتُـهُـمْ وَعَـرَفْـتُ ذَنْـبِـيَ أَنَّـنِـي
عَـيَّـرْتُـهُـمْ فَـلَـقِـيـتُ فـيـهِ مَـا لَـقُـوا[٢]
أَبَـنِـي أَبِـيـنَـا نَـحْـنُ أَهْـلُ مَـنَـازِلٍ
أَبَـداً غُـرَابُ الْـبَـيْـنِ فـيـهَـا يَـنْـعَـقُ[٣]
نَـبْـكِـي عَـلَـى الـدُّنْـيَـا وَمَـا مِـنْ مَـعْـشَـرٍ
جَـمَـعَـتْـهُـمُ الـدُّنْـيَـا فَـلَـمْ يَـتَـفَـرَّقُـوا[٤]
أَيْـنَ الأَكَـاسِـرَةُ ٱلْـجَـبَـابِـرَةُ الْأُلَـى
كَـنَـزُوا الْـكُـنُـوزَ فَـمَـا بَـقِـيـنَ وَلَا بَـقُـوا[٥]

= عند احتراقه. معايشة الشاعر للحبّ طويلة الأمد، فناره لا تنطفئ، وهي تدوم أكثر ممّا تدوم نار تلك الأشجار في رحلة احتراقها بل إنها تكلّ إذا ما قورنت بنار حبّه.

(١) ورد البيت في مغني اللبيب لابن هشام وشرح شواهده، للسيوطي: ٦٩٦. عذلت: لمت. كان من عادة الشاعر أن يلوم العشّاق حتى ابتلي بالحبّ وذاق عذابه، ولذا فهو يستغرب كيف أن العشاق لا يموتون من حبّهم.

(٢) ما أصاب الشاعر من آلام الحبّ وعذابه، جعله يعلم أنه كان مخطئاً في موقفه من العشاق ولومه لهم، فها هو الآن يُقاسي ما هم يُقاسونه من حرمان وهجر.

(٣) نعيق الغراب: صوته المكروه. ينتقل الشاعر من الغزل وهمومه إلى موضوع حكمي تأمّليّ في مسار البشر، لقد وجد الإنسان في دار غربة ووحشة، وفي أحد أركان الوجود يُصدر الإنسان نعيقاً يُشمّ منه رائحة التشاؤم؛ فثمّة غراب لا يني ينعق مؤذناً برحيل الأحبة والإخوان عن هذا الوجود.

(٤) و (٥) معشر: الناس المتعايشون. كلّ شيء هالك إلّا وجهه؛ فالدنيا نبكي لأجلها وتبكينا بمفاجآتها المحزنة؛ فما من جيل التقى وعاش إلّا آذن برحيل. حتى الأكاسرة العظام الذين ملأوا الدنيا بأعمالهم وجبروتهم، وكنزوا الكنوز، فما بقي منهم شيء.

مِـنْ كـلِّ مَـنْ ضَـاقَ الْـفَـضَـاءُ بِـجَـيْـشِـهِ
حَـتَّـى ثَـوَى فَـحَـوَاهُ لَـحْـدٌ ضَـيِّـقُ[١]
خُـرْسٌ إِذَا نُـودُوا كـأَنْ لَـمْ يَـعْـلَـمُـوا
أَنَّ الْـكَـلَامَ لَـهُـمْ حَـلَالٌ مُـطْـلَـقُ[٢]
وَالـمَـوْتُ آتٍ وَالـنُّـفُـوسُ نَـفَـائِـسٌ
وَالـمُـسْـتَـعِـزُّ بِـمَـا لَـدَيْـهِ ٱلْأَحْـمَـقُ[٣]
وَالـمَـرْءُ يَـأْمُـلُ وَٱلْـحَـيَـاةُ شَـهِـيَّـةٌ
وَالـشَّـيْـبُ أَوْقَـرُ وَالـشَّـبِـيـبَـةُ أَنْـزَقُ[٤]
وَلَـقَـدْ بَـكَـيْـتُ عَـلَـى الـشَّـبَـابِ وَلِـمَّـتِـي
مُـسْـوَدَّةٌ وَلِـمَـاءِ وَجْـهِـيَ رَوْنَـقُ[٥]
حَـذَراً عَـلَـيْـهِ قَـبْـلَ يَـوْمِ فِـرَاقِـهِ
حَـتَّـى لَـكِـدْتُ بِـمَـاءِ جَـفْـنِـيَ أَشْـرَقُ[٦]

---

(١) و (٢) ثوى: لحّد في قبره. ويروى «توى» بالتاء بدلاً من «ثوى» بالثاء، وتوى بمعنى هلك. ومن الملوك من ضاقت الأرض بجيوشه وأعماله الحربية العظيمة، فإذا بالدنيا الواسعة تضيق لتنحصر بقبر ضيّق يحتضنه، وقد خمدت فيه حواسه، فإذا به عاجز عن النطق، وقد اعتاد أن يأمر فيطاع.

(٣) و (٤) يروى «المستغر» بالراء بدلاً من «المستعز» بالزاي. نفائس: غالية يُضنّ بها. المستعزّ: المفتخر بما لديه. لا مفرّ من الموت والحياة عزيزة لا يُستهان بها، والأحمق من بني البشر من يغترّ بما يملك من جاهٍ ومالٍ، ورغم قناعات البشر بحتميّة الموت، فهم يُقبلون على الحياة بشوق ورغبة، ومن مظاهر الزوال شيب يغزو الرؤوس، ومع ذلك ففترة الشباب والقوّة تمتاز لدى بعضهم بحماقات يرتكبونها.

(٥) و (٦) اللمّة من الشعر: ما جاوز شحمة الأذن. الرونق: الجمال. تخلّص الشاعر إلى ذكر تجربته مع الزمن، فقد ذرف دموعه وهو في ريعان صباه وشبابه، إذ كان شعر رأسه يُغطّيه السواد، ووجهه يطفح نضرة وجمالاً، مخافة زوال تلك النعم، حتى إنه كان يختنق من شدّة بكائه.

أَمَّـا بَـنُـو أَوْسِ بْـنِ مَـعْـنِ بْـنِ الـرِّضَـا
فَـأَعَـزّ مَـنْ تُـحْـدَى إِلَـيْـهِ الأَيْـنُـقُ(١)
كَـبَّـرْتُ حَـوْلَ دِيَـارِهِـمْ لَـمَّـا بَـدَتْ
مِـنْـهَـا الـشُّـمُـوسُ وَلَـيْسَ فِيـهَـا الـمَـشْـرِقُ(٢)
وَعَـجِـبْـتُ مِـنْ أَرْضٍ سَـحَـابُ أَكُـفِّـهِـمْ
مِـنْ فَـوْقِـهَـا وَصُـخُـورُهَـا لَا تُـورِقُ(٣)
وَتَـفُـوحُ مِـنْ طِـيـبِ الـثَّـنَـاءِ رَوَائـحٌ
لَـهُـمُ بِـكُـلِّ مَـكَـانَـةٍ تُـسْـتَـنْـشَـقُ(٤)
مِـسْـكِـيَّـةُ الـنَّـفَـحَـاتِ إِلَّا أَنَّـهَـا
وَحْـشِـيَّـةٌ بِـسِـوَاهُـمُ لَا تَـعْـبَـقُ(٥)
أَمُـرِيـدَ مِـثْـلِ مُـحَـمَّـدٍ فِـي عَـصْـرِنَـا
لَا تَـبْـلُـنَـا بِـطِـلَابِ مَـا لَا يُـلْـحَـقُ(٦)
لَـمْ يَـخْـلُـقِ الـرَّحْـمٰـنُ مِـثْـلَ مُـحَـمَّـدٍ
أَحَـداً وَظَـنِّـي أَنَّـهُ لَا يَـخْـلُـقُ(٧)

---

(١) تخلّص الشاعر إلى مدح بني أوس بن معن بن الرضى؛ فهم مقصد من يطلب رِفدهم وصِلتهم، فإليهم تركب المطايا ويحدوها الحُداة.

(٢) ورد البيت في: أسرار البلاغة، للجرجاني: ٣٤٦، أمالي ابن الشجري ١: ٨١، لشدّة إعجاب الشاعر بممدوحيه وحبّه لهم كبّر تعظيماً لهم، فهم شموس تشرق عظمة وبهاءً وكرماً، رغم أنهم يسكنون المغرب.

(٣) و (٤) ويستغرب الشاعر من كرم ممدوحيه، فأكفّهم ينهمر منها الكرم رغم كونها صخراً قوياً لا يُنبت ولا يُورق. وهم ينتشر صيتهم عبقاً فوّاحاً لحسن أخلاقهم التي تتناقل أفضالهم الألسن في كلّ مكان.

(٥) النفحات: الروائح. تعبق: تنتشر. أخبار ممدوحيه مسكية، رائحتها رائحة المسك وطيبها طيب المسك، وهي في نفس الوقت لا تستجيب لغيرهم لنفورها من مسلكهم، فهي مخصوصة بهم وهم مخصوصون بها.

(٦) و (٧) يُخاطب الشاعر من يُفتّش عن مثيل لمحمد ممدوحه، عبثاً يُحاول أن يجد شبيهاً =

يـا ذَا الَّـذِي يَـهَـبُ ٱلْـجَـزِيـلَ وَعِـنْـدَهُ
أَنِّـي عَـلَـيْـهِ بِـأَخْـذِهِ أَتَـصَـدَّقُ[١]
أَمْـطِـرْ عَـلَـيَّ سَـحَـابَ جُـودِكَ ثَـرَّةً
وَٱنْـظُـرْ إِلَـيَّ بِـرَحْـمَـةٍ لا أَغْـرَقُ[٢]
كَـذَبَ ٱبْـنُ فَـاعِـلَـةٍ يَـقُـولُ بِـجَـهْـلِـهِ
مَـاتَ الْـكِـرَامُ وَأَنْـتَ حَـيٌّ تُـرْزَقُ[٣]

أي محل أرتقي

[مجزوء الرجز]

أَيَّ مَـحَـلٍّ أَرتَـقِـي
أَيَّ عَـظِـيـمٍ أَتَّـقِـي[٤]
وَكُـلُّ مَـا قَـدْ خَـلَـقَ ٱللَّـ
ـهُ وَمَـا لَـمْ يَـخْـلُـقِ[٥]
مُـحْـتَـقَـرٌ فِـي هِـمَّـتِـي
كَـشَـعْـرَةٍ فِـي مَـفْـرِقِـي[٦]

= له في ذلك العصر، ولن يجد من يبلغ شأوه؛ فمن رحمة اللَّه تعالى له أنه لم يخلق مثيلاً له ولن يخلق شبيهاً به في مستقبل الأيام.

(١) يُخاطب الشاعر ممدوحه، فهو كريم يُعطي بغير حساب لجزيل ما يُعطي وإحساسه في حال قبوله عطاءه أن الشاعر يتصدّق عليه بقبول عطاياه.

(٢) ورد البيت في: أمالي ابن الشجري ١: ٨٢. يستجدي الشاعر ممدوحه ويطلب منه المزيد، فكرمه لا حدود له، ثرّ وغزير يفيض بركة حتى يكاد يُغرق من يحصل عليه، ولذا يخاف الشاعر أن يغرق في بحر جود ممدوحه.

(٣) ابن فاعلة، كناية عن ابن الزانية. ينعى الشاعر على من يقول بأن الكرام قد فقدوا، ولم يعد لهم وجود، ولقد كذب ذلك المدّعي لوجود ممدوحه حيًّا يُرزق ويَرزق؛ فهو يُعطي من عطاء اللَّه ربّ العالمين.

(٤) أي: اسم استفهام يُفيد الإنكار، دفع الغلوّ الشاعر إلى النظر باستعلاء حتى إنه يعتقد بأنه أدرك السماكين لبعد همّته، ولذا فلن يخاف حتى العظماء من الملوك والسادة، فقد حلّ في أعلى ذُرى المجد.

(٥) و (٦) المفرق: حيث يفترق الشعر في وسط الرأس. وقوّة التحدّي لدى الشاعر جعلته =